كتاب

«سرقات المتنبي ومشكل معانيه»

لابن بسام النحوي

القولُ فيه، وردُّه إلى أصله، ونسبتُه إلى صاحبه

الدكتور محمد رضوان الداية

(١)

في غمرة نهضة الحركة الأدبية والنقدية في العصر الحديث، تصاعد الاهتمام بديوان أبي الطيب المتنبي، وشروحه، وبالكتب التراثية التي تناولت شعره بنقدٍ أو مراجعةٍ أو تعليق، إضافة إلى ما ألّفه الأدباء والنقّاد في كتب مُستقلة عن أبي الطيب، وشعره، وفي بحوث كثيرة عُرضت في مُلتقيات وندوات ومؤتمرات أدبية ونقدية، وفي مقالات وبُحوث نُشرت في مجلات متخصصة، وماشابه ذلك من وجوه العناية بشاعر العربية الكبير. وهذه الشروح والبحوث والدراسات والتعليقات والمُقارنات وغيرها ملأت في عناوينها وأماكن نشرها وأسماء مؤلفيها مجلداً مستقلاً صدر عن أبي الطيب المتنبي [١].

---

(١) رائد دراسة المتنبي: كوركيس عواد ـ ط بغداد.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن وجوه العناية بالمتنبي وما إليه. صدور كتابين اثنين عن الدار التونسيّة من تحقيق سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله، أحدهما «الواضح في مشكلات شعر المتنبي من تأليف أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني»، صدر سنة ١٩٦٨ في نحو ١٢٥ صفحة. والثاني «سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النّحوي» صدر سنة ١٩٧٠ في نحو ١٥٠ صفحة. والكتابان مهمّان في باب المُشكل أولاً، وفي موضُوع السرقات الأدبية ثانياً. وهذان الكتابان يذكّران القارئ بكتاب أندلسيّ في موضوع «المشكل في شعر المتنبي» هو كتاب: ابن سيده الأندلسي[٢] . ولهذه الكتب أشباه ونظائر في مايمكن تسميته: مكتبة المتنبي.

وقد أفدتُ من كتاب «سرقات المتنبي ومشكل معانيه» في أثناء تحقيقي كتاب ابن وكيع التنيسي «المنصف»[٣] في جملة مااستفدت منه من المصادر، ولفت الكتاب نظري، بموضوعه، ونسبته إلى «ابن بسام النحوي»، وبقي في الذّاكرة شيءٌ من هذا الانتباه.

وقد استنفد المحقق الفاضل جهده في البحث عن مخطوطة ثانية ـ إضافة إلى النسخة التي اعتمد عليها في نشر الكتاب، فلم يجد، واستنفد جهده في البحث عن شخصية «ابن بسّام النحوي» الذي نسب إليه الكتاب، ووجد أربعة عرفوا بابن بسام[٤]. الأوّل: عليّ بن محمد بن بسّام المعروف بالبسّامي (توفي سنة ٣٠٢) قبل ولادة المتنبي؛ ولايدخل في هذا الموضوع

---

(٢) حقّقته، ونُشِر في دار المأمون بدمشق. ثم نشر بعد ذلك في بغداد والقاهرة.

(٣) المنصف لابن وكيع التنيسي. حققته، ونشرته دار قتيبة بدمشق. ثم نشر بعد ذلك في الكويت.

(٤) وينظر ماكتبه الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه: دراسة في مصادر الأدب ٢٣٤ وما بعدها، ومقدمة تحقيق كتاب الذخيرة لابن بسام.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أصلاً، والثاني: ابن بَسّام الشنتريني الأندلسي صاحب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، والثالث: محمد بن أيّوب كبير فقهاء مدينة مالقة بالأندلس، ومتولّي القضاء فيها، والرابع: جابر بن بسّام، من أهل بيت محمد بن أيوب السابق ذكره، وكان مفتياً بمالقة. ورجح عند المحقّق الفاضل أن يكون الكتاب من تأليف ابن بَسّام الشنتريني الأندلسي.

وبقي إشكال آخر هو إضافة «النحوي» إلى اسم ابن بَسّام؛ قال في مقدّمة التحقيق «فاحتمل أنه نسبة إلى علم النحو وهو الأظهر. واحتمل أنه نسبة إلى جدّ» وأفاضَ في هذا الجانب(٥) وأشار إلى موافقة أسلوب كتاب «سرقات المتنبي ومشكل معانيه» أسلوب كتاب الذخيرة(٦) فقال: « وأسلوب هذا الكتاب وطريقته توافق تمام الموافقة طريقة ابن بسام في كتاب الذّخيرة من نسبة المعاني الشعرية إلى من سبق قائلَها، ومن التنظير بينها وبين مايشبهها، ومن النقد لها بالثناء إن استحقّته أو ضدّه إن اقتحمته. ومن الدلالة على شدّة ملابسته لشعر أبي تمام وشعر أبي الطيب بحيث يقوى الظن بأنّ هذا التّأليف لابن بسام صاحب كتاب الذخيرة»، وضرب أمثلةً في هذا الاتجاه الذي رجّحه: ثم قال(٧) «ومما يحقّق أن مؤلف هذا الكتاب أندلسي قوله: «وقال بعض أهل أُفقنا. وهو يوسف بن هارون الرّمادي» فإنّ يوسف هذا من أهل رمادة التي هي من غرب الأندلس كما أن شنترين من غرب الأندلس.

---

(٥) مقدمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الصفحة (ي).

(٦) الصفحة (م) من المقدّمة.

(٧) الصفحة (ن) من المقدمة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا رجعنا إلى صورة أول مخطوط الكتاب، وجدناه يبدأ بالبسملة، وبعدها «قال الشيخ الإمام العالم الفاضل العلامة ابن بَسّام النحوي رضي الله عنه» ثم نقرأ بعد اسم المؤلف مباشرة: «هذا كتاب في ذكر سرقات أبي الطيب ومشكل معانيه المرتبة على القوافي؛ باب قافية الهمزة...». وفي صورة آخر صفحة من المخطوطة: «وهذا القدر كاف فيما رُمناه، ومغنٍ عن تتبّع ماسواه إذ ليس قصدنا إلا الوقوف على بعضه والمشاركة فيه دون استيعاب جميعه، وماتوفيقنا إلاّ بالله...الخ».(٨).

ونلاحظ هنا عدداً من الملاحظات :

١ ـ عدم إيراد اسم مؤلّف الكتاب كاملاً والاكتفاء بالكنية «ابن بسام» والصِّفة «النحوي».

٢ ـ وهذه الصفة لم يضفها أحد إلى ابن بسام الشنتريني. ولانعرف له اشتغالاً بالنحو: تأليفاً أو تدريساً.

٣ ـ تلقيب المؤلف بالشّيخ وهي صفة لم يضفها أحد إلى ابن بسّام.

٤ ـ خلوّ الكتاب من مقدّمة للمؤلف ولو في سُطور يسيرة.

٥ ـ عدم إعادة اسم المؤلّف في آخر الكتاب.

٦ ـ إشارة في آخر الكتاب إلى أنّ المؤلف لم يقصد من كتابه هذا إيراد شعر المتنبي المشكل كله ولا استيفاء موضوع السرقات وقد قال: «ليس قصدنا إلاّ الوقوف على بعضه والمشاركة فيه دون استيعاب جميعه»، فهذا إذن هو منهج الكتاب ومقصد مؤلفه، أو لنقل إنه منهج هذا الفصل من الكتاب الأصلي كما سأبيّن.

---

(٨) ينظر الصفحتان (ص) و (ق) من مقدمة المحقق.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢)

في جُملة كتب النقد الأدبي الأندلسيّة كتاب مايزال مخطُوطاً[٩] وقد عَرضْتُ موضوعاته وقضاياه، ووقفتُ عند جوانبه النّقديّة والبلاغيّة في كتاب: النّقد الأدبي في الأندلس[١٠]، وعنوان الكتاب هو: «جواهر الآداب وذخائر الشّعراء والكتاب» ومؤلفّه هو أبو بكر محمّد بن عبد الملك النحوي الشَّنتريني الأندلسي ويُعرف بابن السرَّاج.

وجزء من أجزاء هذا الكتاب: (الرّابع والأخير فيه) هو عَيْنُه ماطُبع بعنوان: «سرقات المتنبي ومشكل معانيه». وهذا وقتُ الإيضاح والتفصيل.

كانت لي صلة بهذا المؤلّف «الشيخ المعلم المحاضر البارع أبي بكر بن السرّاج الشنتريني الأندلسي» من وقت مبكّر في عنايتي بالتراث الأندلسي والمغربي؛ وقد حققت كتابيه اللّطيفين: المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي[١١] ولفت انتباهي كتاب ورد في ثبت مؤلّفاته عنوانه: «جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب» صحيح أنّ العنوان عام لاخصوصيّة فيه، غير أنّ وصف الكتاب الموجز في بعض تراجم المؤلّف كقول ابن الأبّار في التكملة[١٢]: «وله اختصار في كتاب العمدة لابن رشيق وتنبيه على أغلاطه فيه»، دلّ على أنّ للكتاب خصوصية، وأنّه يُسلك في كتب النّقد الأدبي والبلاغة العربيّة.

---

(٩) نعرف منه نسخة مخطوطة واحدة في مكتبة الاسكوريال (ينظر بروكلمان: تاريخ الأدب ١: ٣٧٧ (٣٠٩) والملحق ١: ٥٤٣) [بروكلمان/ الترجمة العربية ٥: ٣٥٤/المجلة].

(١٠) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (الطبعة الثانية) دمشق ـ مؤسسة الرسالة: ٤٣٢ ـ ٤٤٩.

(١١) نشرت الطبعة الثالثة منه دار الملاح ـ دمشق ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م.

(١٢) التكملة (ط مصر) ٢: ٤٧٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا الأديب الناقد الفقيه اللُّغوي النَّحوي: أبو بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني الأندلسي علم من أعلام الأندلس الذين غادروا الأندلس على نية الحجّ أو الرحلة في طلب العلم، أو غير ذلك من المقَاصد الشرعيّة والعلميّة، أو الأسباب المعاشيّة المختلفة.

ونقل المقري[١٣] أن ابن السرّاج رحل عن الأندلس إلى مصر سنة ٥١٥ وكانت وفاته سنة ٥٥٠[١٤]. واستظهرت أن تكون ولادته نحو سنة ٤٧٥ وهو من شنترين (اسمها الآن Santarem في البرتغال) وهي مدينة على الشّاطئ الأيمن لنهر التاجُه (بضم الجيم) Tajo إلى الشمال الشرقي من مدينة أشبونة الأندلسية على المحيط الأطلسي Lisbona على بعد ٨٠ ميلاً منها.

ونعرف من تاريخ هذه المدينة في عصرها الأندلسي أنها وقعت في يد ألفونسو السادس غنيمة باردة من المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس سنة ٤٨٦هـ إلى أن استردّها المرابطون المجاهدون سنة ٥٠٤هـ ، واستمرت حالها في ظل دولة المرابطين إلى سنة ٥٤٣ (بعد تغلب دولة الموحدين عليهم) حين استولى عليها انريكيث ملك البُرتغال.

وعبارة ابن الأبّار عن ابن السرّاج أنه «شنتريني سكن إِشبيلية» ترجّح لديّ أن يكون غادر مع أهله، في صباه، مدينته شنترين المُحتلّة (بعد ٤٨٦) وقصد إلى إِشبيلية، ونعرف أنّ هذه المدينة العريقة قد أصبحت أيام المرابطين عاصمة الأندلس أو المركز الأول فيها. وانتقل إليها «مركز الأحداث

---

(١٣) نفح الطيب (ط بيروت) ٤: ٢٣٨.

(١٤) وقيل في وفاته ٤٤٩، أو ٤٤٥ أيضاً.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأصبحت موطن التنقل السياسي والثقافي على السَّواء».[١٥].

ونعرف من ترجمة ابن السرّاج أنه نزل مصر وأقرأ بِها. وحَدّث، وكانت له حلقةٌ في جامع مصر لإقراء النحو. وأنه قصد إلى اليمن فأقام بها مدةً، ثم عاد إلى مصر. ونقل صاحبُ النفح عن السّلفي قوله عن ابن السرّاج «كان من أهل الفضل الوافر، والصلاح الظاهر، وكانت له حلقة في جامع مصر لإقراء النحو؛ وكثيراً ماكان يحضر عندي ـ رحمه الله تعالى ـ مدة مقامي بالفسطاط».

(٣)

ونلاحظ أن بين ابن السرّاج، وابن بَسّام الذي نُسِبَ إليه كتاب: «سرقات المتنبي ومشكل معانيه» اشتركا في أمور:

١ ـ فكلاهما أندلسيّ.

٢ ـ ومن مدينة شنترين نفسها.

٣ ـ وكلاهما ألّف في الأدب والنّقد.

٤ ـ ولهما ـ معاً ـ عنايةٌ بالمتنّبي وإعجابٌ بشعره، واحتفاءٌ به.

ثم إننا ـ بنسبة الكتاب إلى صاحبه، وردّ الفرع منه إلى الأصل ـ نحلّ قضية تحلية المؤلّف بالشّيخ وبالنّحوي.

ـ أما صفة «الشيخ» فقد حَلاّه بها الوادي آشي في برنامجه[١٦] وقال فيه «شيخ الأدب: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن السرّاج النّحوي

---

(١٥) دراسة في مصادر الأدب: د. الطاهر أحمد مكي: ٢٤٦.

(١٦) برنامج الوادي آشي: ٣١٠ [تحقيق محمد محفوظ ـ ط ٣/ ١٩٨٢، دار الغرب الإسلامي ببيروت / المجلة].

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأندلسي» وقول الوادي آشي «شيخ الأدب» ليست من باب الزّيادة في التوقير.

ـ وأما صفة «النحوي» فقد وردت في عبارة الوادي آشي، وهي ثابتة في ترجمته. وعرفنا أنّه كان يُقرئ النّحو في جامع مصر الكبير في حلقةٍ عامّة جامعة للطلبة وغيرهم من المهتمين بالعلم.

وردّ هذا الجزء إلى أصله يحلّ قضيّة أُخرى هي خُلوّ المطبوعة التونسية من مقدّمة التأليف؛ وقوله في آخر الكتاب «وهذا القدر كافٍ في مارُمناه، ومُغْنٍ عن تتبّع ماسواه إذ ليس قصدنا إلاّ الوقوف على بعضه، والمشاركة فيه دون استيعاب جميعه». وهي عبارة وردت في «جواهر الآداب» في المطبوعة التونسية أيضاً.

وأرجع إلى مقدّمة جواهر الآداب، حيث بَيّن المؤلّف منهجه في الكتّاب وعناوين أجزائه الأربعة؛ قال[١٧]: «جزّأته أربعة أجزاء:

الجزء الأوّل في ذكر الشعر وقائليه واختلاف أغراضهم. وتفصيل أنواعه وآداب عمله وأبواب بديعه.

والجزء الثاني: في تفاصيل أنواعه بحسب معانيه واختلاف القول فيه، وتوليد المعاني وسرقاتها.

والجزء الثالث: في المنثور ومايتعلّق بعمله والمختار من فصوله.

والجزء الرابع: في سرقات أبي الطيب ومشكل معانيه.

وإنما ألحقت هذا الجزء بالكتاب لما في معرفته من العَوْن على التصرّف

---

(١٧) الورقة: ٤ / ب.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتنبُّه لمشكلات المعاني واقتصرت على شعر أبي الطيب لكثرة ذلك فيه. لأنه أشيع واستعمال النّاس له أكثر، وأنا أربأ بمن أمدّه الله بنور العقل وألبسه ثوب الدّيانة والفضل الانحطاط إلى تتبّع العثرات والانخراط في سلك من هو موقوف على الزلات»، بل الأولى الاغتفار ليسير الزلل إن ظهر والاعتذار عن كثيره إن انتشر واشتهر:

وما أبرّئ نفسي إنني بَشَرٌ ... أسهو وأخطئ مالم يحمني قَدَرُ

ولن ترى عذراً أولى بذي زلل ... من أن يقول مقرّاً إنّني بشرُ

ولو كان المؤلّف يريد وضع كتاب «سرقات المتنبي ومشكل معانيه» على سبيل الإيجاز والاختصار لصلح هذا الكلام مقدّمة له. وعلى رغم توضيح المؤلف وبسطه عذره في إفراد الجزء الرابع بموضوع مخصوص عن سرقات أبي الطيب ومشكلات معانيه يبقى هذا الجزء مستقلاً منفرداً، ولكنه - على كل حال - يعبّر عن استمرار الاهتمام بالمتنبي في حلقات الأدباء ومجالسهم، بل نفهم أيضاً أن شعر المتنبي «مادّة مقرّرة» يدرسها الطلبة، ويتمرّسون من خلاله بأمرين: معالجة قضية المشكل والغريب، والخوض في موضوع السرقات الأدبية عامّة، والعناية بسرقات أبي الطيب، وماقيل فيها «مما هو له أو عليه من جهة أُخرى»[١٨].

(٤)

والجزء الرابع من كتاب ابن السرّاج الشنتريني «جَواهر الآداب وذخائر الشّعراء والكتاب» يقع بين الورقة ١٣١/ب إلى آخر الورقة ١٤٨/ب. وهو يستدرك الموضوعين المَخْرومين من مخطوطة تونس، اللّذين أشار إليهما المحقّق رحمه الله.

(١٨) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: ٤٣٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أولهما: في الورقة ١٩/ب من التُّونسية (ومادته الناقصة ثابتة في جواهر الآداب في الورقة ١٣٧/ب).

والثاني: عند عند الورقة ٢٩/ب من التونسية (ومادتّه في الورقة ١٤٠/أ، و١٤٠/ب من جواهر الآداب).

على أن مخطوطة تونس تستدرك خَرْماً في مخطوطة جواهر الآداب (من آخر الصفحة ١٦ من المطبوع إلى أواخر الصفحة ٢٠، وموضعه في الورقة ١٣٣/أ من جواهر الآداب).

وبين النُّسختين فروقٌ يسيرة، وأبياتٌ قليلة مثبتة في «جَواهر الآداب» دون التونسيّة، وأُخر ثابتة في المخطوطة التّونسيّة دون الأسكوريالّية؛ وهو أمرٌ مألوفٌ في الكتب التي يحاضِرُ بها أَصْحَابُها تلامذتهم ومُريديهم، أو تُقرأ عليهم. والإفاضةُ في هذا الجانب تخرج بالمقالة عن موضوعها.

ونخلص إلى أنَّ ماورد في صدر الصفحة الأولى من مخطوطة الكتاب المطبوع بعنوان: «سرقات المتنبي ومُشكل معانيه» كلام فيه تلفيقٌ ووهم[١٩] ويتبادر إلى الذّهن ـ قياساً على أحوال مشابهة يمرّ بها المحقق والقارئ المدقق ـ أَن واحداً من أهل العلم أو شداته، أ،و ناسخاً يتاجر بالكُتب تنبه إلى إمكان فصل الجزء الرابع من كتاب «جواهر الآداب» وذخائر الشعراء والكتاب» لأنه يتعلّق بأبي الطيب المتنبي، فلمّا فصلَه وضع له عنواناً ممّا وضعه المؤلّف نفسُه، مع إضافة مايدل على أنّه كتابٌ لا فصل من

(١٩) نقرأ في «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» للدكتور إحسان عباس ص ٥٠٦ (الطبعة الأولى عن دار الأمانة ومؤسسة الرسالة) قوله: «وقد نشر الأستاذ ابن عاشور كتاباً في سرقات أبي الطيب من تأليف ابن بسام النحوي، واعتبر ابن بسام صاحب الذخيرة مؤلفاً له، ولكن ليس في الكتاب أية قرينة تدل على أنه من تأليفه..».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتاب؛ فجاءت مقدّمة الفصلة المجتزأة على هذه الصُّورة: « هذا كتاب في ذكر سرقات أَبي الطيب ومشكل معانيه المرتبة على القوافي». وعبارة المؤلّف الأصلي ابن السرّاج عند الباب الرابع من جواهر الآداب: «ذكر الجزء الرابع في سرقات أبي الطيب ومشكل معانيه. وقد ذكرتها على ترتيب القوافي ليسهل بذلك طلب ما احتيج إليه منه». وبعده مباشرة «باب الهمزة قال:

يشكو المَلامُ إلى اللوائمِ حرّه ويصدّ حين يَلُمْن عَن بُرَحائِه...»

وفي المطبوع: «باب قافيةِ الهمزة قال: يشكو الملام...الخ».

وتستمر مادّة الكتاب موافقةً مافي «جواهر الآداب»مع ملاحظة ما أوردته في الفقرة (٤) من هذه المقالة.

ونلاحظ هنا أن المحقق الفاضل فضّل لقب «المتنبّي» على كُنيتِه «أبي الطيب» التي وردت في المخطوطة التونسية فجعل اللقب مكان الكنية فقال «سرقات المتنبيّ ومشكل معانيه».

ويبقى سؤالٌ آخر كيف صار اسم ابن السرّاج: ابن بَسّام؟ ويصعبُ أن يكون في الأَمر تصحيف أو تحريف لبُعد مابين الاسمين في الحروف وشكلها.

إن المسافة بين كلمة العلاّمة وكلمة النّحوي في صدر المخطوطة التونسيّة لاتكفي لكتابة كلمتي «ابن بَسّام» على نسق خط السطر نفسه بالقلم نفسه وكلمة «ابن» أحرى أن تكون في الأصل «أَبو» ثم غيّرت الواو إلى نون. وأقحمت كلمة «بسام» في حَيّز ضيق.

ويبدو لي أن الأصل في كتابة السطر: «قال الشّيخ الإمام العالم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفاضل العلاّمة أبو بكر النّحوي». ثم جرى محو حذفت فيه كلمة «بكر» ووضعت كلمة «بسام» مع تبديل «أبو» إلى «ابن».

ولعلّ الناسخ أو القارئ الذي أراد إفراد الجزء في مجلّد، وجَعْلَهُ كتاباً مستقلاً استغرب الاسم وعرَف النّسبة (الشّنتريني) فَنسب الكتاب إلى شنتريني يعرفه هو صاحب الذّخيرة. وهذه المطالعة مني نوع من الاجتهاد في السّبب والكيفيّة، لاتلزم. غير أنّ الثابت المؤكد أنّ مانشره المحقق الفاضل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تحت عنوان «سرقات المتنبي ومشكل معانيه» ليس كتاباً مستقلاً، وليس هو من تأليف ابن بسام؛ وأنّه الجزء الرّابع من كتاب «جواهر الآداب وذخائر الشّعراء والكتّاب» لأبي بكر محمد بن عبد الملك الشّنتريني المعروف بابن السرّاج. على أنّ للمحقق الفاضل مزيّة نشر الكتاب وتحقيقه، وإسهامه في الحركة الأدبيّة والنّقدية حوْل ديوان المتنبيّ. رحمه الله وأَجزل له الثّواب.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net